

شعر الثورة بين الالتزام والوحدة

د/ رمضان كريب - جامعة تلمسان

لقد أدرك الشعراء الجزائريون منذ بداية ثورة التحرير أن لهم رسالة مقدسة نحو وطنهم الغالي. فكانوا جميعهم مدعويين إلى المساهمة بالمناضلة في حرب التحرير ومسايرة ركب الثورة المظفرة إلى جانب إخوانهم الثائرين في الجبال والتلال وفي السهول والوديان، في القرى والمدن، ضاربين بذلك أسمى وأروع مثال للتحدى في موقف الشاعر الأديب من مناهضة الاستعمار والتصدي لمناوراته الدنيئة، وذلك أن قوى الخلق والإبداع تجعل الثقافة سلاحا حادا من أسلحة المعركة. ونتيجة لهذا تحولت قصائدهم إلى أناشيد وطنية حماسية تواكب خطوات المجاهدين في كل حذب وصوب.

انطلاقا من هذا المنظور يعتبر شعرهم التزاما بصدق وواقعية بمحوم الوطن المكافح، وعذابات رجاله الثوريين، فذابت الذات الإبداعية في بوتقة الجموع المناضلة. و أصبحت قضية الوطن جامعة و موحدة للجميع، الكل ذاب وانصهر في جبهة واحدة. فتوحدت الجهود وانتفى الخلاف، وسقطت المذاهب والأحزاب لتتنضوي تحت راية الكفاح. وكان هذا التوحد والالتزام مدعاة للنصر والاستقلال.

ضمن هذا الإطار ستمتد المقالة بمحاورة نماذج من شعر الثورة وشعرائها .

إنه لمن دواعي الفخر حقا، أن نجد في هذا البلد العزيز، من يوجه عنايته إلى موضوع غاية في الأهمية كان له الأثر في تكوين العصور وتبدل الأحوال، وهو موضوع الشعر.

والحقيقة أن الموضوع في حد ذاته جميل ورائق، فما أحوجنا عمليا أن نعيش برهة من الزمن يهيج من طبيعته، يهيج الفكر ويطيّب النفس، والنفس إن طابت تغني، فغنوا معي "من جبالنا طلع الأحرار" كما غناها مفدي زكريا شاعر الثورة، شاعر الوحدة والالتزام.

لابد أن نشير منذ البداية إلى أنه من قديم الزمان كان الشاعر العربي يعدد فضائل قومه ويفتخر بمآثرهم، وكان لهذا تأثير في النفوس. وكان أفراد الأمة يستعملون هذه الأشعار ويتغنون بها في الأسفار والحضر والولائم والدعوات وفي الأعياد وعند الراحة والتعب وفي مجالس الملوك ومنازل السوق، وكان ذلك الاستعمال شاملا يضم النساء والرجال والصبيان والشيوخ والصناع والتجار وغيرهم .

ويدل هذا على أن الشعر علة قوية وأثر فعال في النفوس لا يعادله في الغالب أي قول، وبعبارة أخرى، أي صناعة منطقية غيره.

فمن الثابت على مر العصور أن هناك تفاعل مشترك بين المجتمع والشاعر، فالشاعر يخلق المجتمع والمجتمع يخلق الشاعر .

في الواقع هناك عوامل كثيرة تؤثر في حياة الشعوب بالقوة أو الضعف منها الآداب وخاصة الشعر حيث يظهر أثره في عواطف الناس بوضوح، لاسيما في الأزمات وفي أيام الحزن والشدائد وأثناء الحروب والثورات وقد بالغ البعض في وصف الشعر وحسن أثره، وضربت عدة أمثلة في قوة تأثيره، حيث كان الأمير يعفو عن الشاعر بمجرد أن يسمع منه أبيات قليلة وربما جازاه بمبلغ من المال. وهذا ما حدث مرارا عبر تاريخ الحضارة العربية الإسلامية .

والحق أن الأمم كافة تتأثر بالشعر، غير أن العرب هم أسرع الناس تأثرا وانفعالا بالشعر، فقد كانوا يقرنون الشعر بالسحر لما يجدون من تأثيره في نفوسهم وتعلقهم به، ومعلوم أن الانفعال جزء أساسي من هموم الإنسان ومراميه في هذه الحياة، وبتعبير آخر، الانفعال طاقة تمكن الإنسان مما لا يستطيعه سواه.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد هو أن الشعر بطبيعته يتكون من عناصر تعتبر العاطفة والخيال أساسيين مهمين فيها، ولما كان الإنسان بطبيعته عاطفيا، والعاطفة لا تقل عن العقل في التعامل مع الحياة، فقد مال الإنسان إلى الشعر منذ أقدم العصور .

ولهذه الأسباب يعتبر الشعر قوة روحية قادرة على التحويل والتبديل وقد قيل في تعريفه: "إنه لمن صناعة يؤلف بها الشاعر المقدمات التي تنشأ عن الوهم، فيؤلف منها القياسات المنتجة، يجعل المعنى الصغير كبيرا، ومعنى الكبير صغيرا، ويرد الحسن في زِيّ القبيح، و يجْلُو القبيح في صورة الحسن، ليثير بالإيهام القوة العصبية والشهوانية، فيحدث للطباع انقباض وانبساط، وتنشأ في العالم الأمور العظام"⁽¹⁾.

ولابد من التذكير في هذا السياق بأن الشعر في العصر النبوي والخلفاء الراشدين كان يذهب في ميادين الحرب مع صوارم الشجعان جنبا إلى جنب.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحث الشعراء على هذه الناحية ويأمرهم بها، وكان يراه نصرا للإسلام وجهادا، وكان الشعر موضوع اهتمام لدى الأئمة والعلماء يعدونه دعاية روحية ونصرة للدين. ذلك كله يدل دلالة قاطعة على أن الشعر علة قوية في تعزيز أخلاق الإنسان وشحذ همته وارتقائه إلى قمة المجد والشرف، ويعمل بفعالية إيجابية في نمو الأمة وازدهارها، وهذا ما يؤكد ابن

رشيق بقوله: "والعرب تنشد الشعر للغناء بمكارم الأخلاق وطيب أعرافها، وذكر أيامها الصالحة وأوطانها النازحة، وفرسانها الأجداد، وممائها الأجواد لتهز نفوسها إلى الكرم وتدل أبناءها على الشيم" (2).

وإذا حاولنا استعراض بعض الأشعار التي قيلت في قيمة الشعر ومدى تأثيره على الإنسان في ميادين الأخلاق والوطنية وغيرها، سنجد فتوى ابن المبارك التي أقرّ فيها أن الجهاد والدفاع عن الوطن لا يعدله شيء حتى الاعتكاف في المسجد، بل اعتبر الاعتكاف في هذه الحال عبثاً وذلك عندما قال:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا	لعلمت أنك بالعبادة تلعب
من كان يخضر جيده بدموعه	فحورنا بدمائنا تتخبط
ريح العبير لكم ونحن عيرنا	ريح السنايك والغبار الأطيب ⁽³⁾

وإذا انتقلنا إلى الرصافي نجد أنه يشير بقوة إلى المهمة المنوطة بالشعر والشاعر حيث ينشد:

وما ينفع الشعر الذي أنا قائل	إذا لم أكن للقوم في النفع ساعيا
ولست على شعري أروم مثابة	ولكن نصح القوم جُلّ مراميا
وما الشعر إلا لأن يكون نصيحة	تنشط كسلانا وتنهض ثاويا
فعلّمهم كيف التقدم في العلا	ومن أي طرق يتغنون المعاليا

ومن منطلق التغني بالوطن شعرا وهو أمر يؤثر تأثيرا إيجابيا في النفس، ذلك لأننا ندرك تمام الإدراك أن الناس يعجبون بالعقل وسلطانه، ولكنهم لا يحبونه، لأن الذي يؤثر فيهم هو ما يوحى به القلب، وبصفة خاصة الإنسان المثقف الذي يقبل بسرعة الفكرة التي تقبل إلى عقله في ثوب البلاغة والبيان الأنيق أكثر من قبوله الفكرة التي ترد إلى ذهنه عارية إلا عن الحقيقة والجوهر، ذلك لأن للوجدان نصيبا ملحوظا في الفكرة الأولى⁽⁴⁾.

في هذا الإطار، إطار التغني بالبلاد نجد بيت الرافعي الشعري الذي يردده كل إنسان يحب وطنه ويعشق موطنه، وذلك حيث قال:

بلادي هواها في لساني وفي دمي

بمجدها قلبي ويدعو لها فمي

وأسبق منه قال ابن الرومي في نفس الاتجاه :
ولي وطن آليت ألا أبيعـه وأن لا أرى غيري له الدهر مالكا

عند سماع هذه النماذج يتأكد الإخلاص للوطن في القلب وتتوهج شعلة الوطنية بين
حناياه، فيشب الفتى على التضحية والفداء والدفاع عنه .

ومحمل القول إن هذه النماذج التي استعرضناها تثير في النفس معاني الشهامة والمروءة
والإخلاص والتضحية والصدق، وهي بلا شك حافز للهمم، وتعتبر من عوامل بناء المجتمع المتماسك
الرصين، وتسمو بالنفوس للاستشراق والتطلع إلى آفاق رحبة في الحياة تنفياً لظلال السعادة، وتزوح
سمات الطمأنينة.

ومن خلال هذا يتبين أن للأدب عامة وللشعر خاصة أثر في التنشئة والتهديب، ومن هنا
يرى إخوان الصفاء أن الصبيان إذا نشأوا مع الشجعان والفرسان تطبعوا بأخلاقهم وصاروا مثلهم.
وأحسبنا لا نبالغ إذا سجلنا بهذه المناسبة أن الشاعر كان ومازال محط أنظار وخوف وارتقاب يتقيه
العلماء ويداريه الأمراء، ويهابه العامة وذلك لأنه حامل لسلح فتاك. وهذا ما يمثله شاعر بقوله:

وللشـعراء ألسنة حـداد على العورات موفية دليـلة
ومن عقل الكـريم إذا أتقاهم وداراهم مداراة جميـلة
إذا وضـعوا مكاويهم عليه - وإن كذبوا- فليس لهـن حيلة

والملاحظ أن في هذه الأبيات مزيجاً من الانطباعات والإيجاءات التي تدل على أن الشعر
قد يضر بكلماته ومعانيه غير المباشرة .

بعد هذه المقدمة الطويلة عن دور الشعر وتأثيره في النفوس، سوف نتقل إلى استعراض
نماذج من الشعر الجزائري الذي قيل إبان الثورة في الاعتزاز بالأجداد والبطولات والتضحيات التي نعثر
بها اليوم ونحرص على التغني والافتخار بها وبقائليها .

هذه النماذج التي تثير في نفوس سامعيها نشوة النصر وعزّ الظفر، كما تقدم لنا خلاصة
التجارب والعبر فتثير لنا السبيل إلى الحياة المستقرة المطمئنة الكريمة في الجزائر العزيزة.
ولا شك أن هذا الشعر يحمل النفوس الصافية إلى العمل ويدفعها إلى البناء، وأن لا نكتفي
بالافتخار بماضينا وكرم أحسابنا بل يريد منا أن نضيف أجدادا إلى أجداد أوائلنا.

وغير خاف على الجميع أن ثورة التحرير تعتبر بحق أهم حدث سجله الجزائريون عبر التاريخ، وقد كان الشاعر في ثنايا هذا الحدث العظيم هو الواسطة بين الشعر والمجتمع، فالشعر بجملته ومقاطيعه وألفاظه ومادته مرآة تتجلى فيها نفسانية الشاعر ومنه يعتبر شعر الثورة سجلا تاريخيا لأبجاده وبطولاتها، ذلك لأن الشاعر لا ينتج إلا إذا جرح القلب، وكان مفدي زكريا جريحا بحق، فصرخ بكلمات عاطفية ديناميكية مثل: الوطنية، الثورة، الجهاد، الاستقلال، الاستعمار وغيرها .

لقد تحول شعرهم إلى سلاح فتاك، لا يقل مضاء عن الرشاش والمدفع، هكذا حمل الشعراء الجزائريون إبان الثورة هموم وطنهم فكان خطابهم الشعري ملتزما بقضية التحرير والاستقلال، وكان هذا الأمر طبيعيا لأنه ملتزم بالوضع ضمن الإطار التاريخي.

فالشاعر كان يهدف إلى إيقاظ الأمة وتعزيز أخلاقها، وبث فيها روح الحياة، وتسديد خطاها للقفز نحو الحرية والاستقلال.

والحق أن هذه الأشعار أذكت جذوة الحرية والاستقلال وهي تشيد بالمقاومة الباسلة لأبطال جيش التحرير وكان مقطع نشيد قسما الذي يتغنى به الجنود الجزائريون:

قسما بالنازلات الماحقات

كان هذا المقطع يبعث المجاهدين على الحماس والثبات في وجه الاستعمار، فمفدي زكريا بكلماته التي تدعو إلى إجلال الأبطال والبطولة يوقد نار الغيرة وحب الجهاد والتضحية، وذلك لأن التاريخ في نظره إنما هو تمجيد للرجال العظماء الذين كرسوا حياتهم في خدمة وطنهم وتحريره .

على أي حال، لقد كان حلم شعرائنا إبان ثورة التحرير هو الالتزام بالقضية الوطنية، وذلك بدوافع الضمير وبالرغبة في الوصول بالثورة إلى الوحدة الوطنية ولذا كان جل شعرهم متصلا اتصالا عميقا بهذه القضية والحقيقة أن هوية المثقف، والأديب الحق على رأس المثقفين رهن بالتزامه قولاً وعملاً بما يطرحه في أدبه كفعالية تتحول إلى قوة حين تعتنقه الجماهير.

على هذا الأساس كان التزام شاعر الثورة في اتجاه خطابه وفعلها الإبداعي نحو كشف زيف الاستعمار وتعريته وفضح أساليبه وألأعييه والدعوة إلى رفضها. والمتأمل في شعر ثورة التحرير يدرك مدى تصويره للواقع الاجتماعي والأحداث والظروف التي تؤلف جزءاً من مضمونه.

فالواقع ينعكس بواسطة حيل فنية و أدبية مباشرة وغير مباشرة، ومن ذلك المفهومات السياسية التي تطفو على السطح بدرجات متفاوتة، الأمر الذي يعطي انطبعا عاما لدى قارئه يبني عليه موقفا معينا، يستفزه ويدفعه لاتخاذ هذا الموقف عمليا. وذلك ما قام به جنود جيش التحرير، وما يقوم به اليوم كل غيور على وطنه كما هو الشأن في فلسطين.

ولا يختلف القارئ المثقف معي إذا قلت له أن شاعر ثورة التحرير كان يدير حوارا من خلال الظروف المحيطة به آنذاك.

والغريب أن هذا الالتزام من هؤلاء الشعراء ارتقى بفنهم وأكسبه الخلود، ولعل الأمر يعود إلى أن القضية جوهريّة وملتبقة بمصير أمة وبلد يزرع تحت العبودية والإذلال. ومن هذا المنظور يصبح الالتزام في هذا المستوى ليس مهمة الشاعر وحده، بل مهمة كل إنسان عاقل يحبّ وطنه، لأنه لا بد من تحمل المسؤولية.

وعند هذا الحدّ يحقّ لنا أن نقول إن شعر الثورة كان أعظم وسيلة لحفز الهمم وإنارة السبيل وإثارة النخوة. ويا لها من وظيفة! فما أخرجنا اليوم إلى ألسنة من هذا النوع. فالواقع أن شعر الثورة استخدمته الأمة لتحطيم قيود الاستعمار ولتغيير الواقع المرّ. لقد تحولت المقاومة الشعرية إلى خنجر في يد المجاهد، وأصبحت الغذاء اليومي بالنسبة إليه. ومن واجب الإنصاف أن نسجل بأن شعراء الجزائر كان بينهم مناضلون ومقاتلون وشهداء، نذكر على سبيل المثال من الشعراء الشهداء الأمين العمودي؛ عبد الكريم العقون، والربيع بوشامة.

والخلاصة أن شعرهم سلاح نضالي يؤيد الثورة، وهم على علم بأن الكلمة تأييد للسلاح ودعم له، ولذلك قال مفدي زكريا في قصيدته بعنوان (تعطيل لغة الكلام):

نطق الرصاص فما يباح الكلام
وجرى القصاص فما يباح كلام

ويقول في نفس المعنى الشاعر "هنري كريا": الشعر والحرب شيء واحد⁽⁵⁾. وهذا مالك حداد يعلن انضمامه إلى الثورة الفاعلة فيقول: إنني لم أعد أبحث عن الحرية ومفهومها في المعاجم ولا في المؤلفات الفلسفية، فأنا أجدها اليوم في عزيمة "ابن مهدي" وفي ابتسامة "جميلة بوحيرد"، وفي كلام "جميلة بوباشا" التي شرفتني بإلقائها قصائدي وهي في غرفة التعذيب⁽⁶⁾.

هكذا أثبت الشعراء التحام الكلمة بالسلاح فصاح خرفي يقول:

من منبر الأوراس حيّ الجمع
فالضاد والرشاش قد نطقا معا

ومهما يكن فقد حملت أشعارهم التفاعل الاجتماعي والنضالي كما حملت الحس الوطني القومي الثوري من مطلع العشرينات في مواكبة الحركة الوطنية حتى اندلاع ثورة التحرير التي بشر بها الشاعر الجزائري واحتضنها مهللا بالانتصار حيث قال محمد العيد:

بلادي فداك الروح والله عالم عليك سلاح خالص القصد سالم
وهبتك روحي يا جزائر فأمرني كما شئت إني خاضع لك خادم

انطلاقاً من المقولة الشعرية التي كانت تدوي في رؤوس الجبال وفي الوهاد والوديان، قام الشعب الجزائري برمته لاحتضان الثورة ومساندتها كرجل واحد، ذلك لأن المقولة الشعرية كانت تهز من الأعماق وتدعوه إلى التجمع مع إخوانه، فينشأ داعياً إلى الوحدة وعدم التفرق والانقسام. لقد ساد الوعي بفضل هذه الأشعار بضرورة الوحدة، يلتمس ذلك عندما بدأت الجماهير تتحمس وتلتف حول المجاهدين، ثم حول بعضها بعضاً لتنسيق الجهود من أجل تدمير العدو والقضاء على طغيانه وجبروته.

فالناظر بإمعان في شعر ثورة التحرير يراه مرآة صادقة لوحدة الشعب الجزائري وانضمامه تحت لواء جبهة التحرير الوطني، مما جعل هذا الشعر يمتاز بالأنفة وصدق اللهجة والاعتزاز بالشخصية الوطنية.

ولعل من أسباب النصر وانحزام العدو، هو الوحدة المتضامنة التي سيطرت على روح الجزائريين بل يمكن لنا أن نجزم القول بأن توحيد الوعي وإيقاظه عند الجزائريين هو كان الشرط الأساس لنيل الاستقلال وطرد الاستعمار.

وبتعبير ثان، إن انتصار الجزائريين على الاستعمار يرجع أساساً إلى روح الوحدة والتضامن والوئام التي كانت تحذوهم كمجاهدين ودعاة للتحرر حتى خارج بلادهم.

حيث كان شاعر الثورة بحق مفدي زكريا يحس بالوحدة الشاملة لأقطار أمته في المغرب، ولا يقف شعوره عند الحدود المصطنعة لكل قطر.

كان مفدي زكريا شاعر الثورة والوحدة والالتزام يستنكر كل وطنية مضرة بالوحدة، وقد عبر عن هذا الاستنكار في بعض قصائده.

وأخيراً ما أخرجنا اليوم إلى هذه الوحدة والابتعاد عن الأنانية، إننا مدعوون في محنتنا اليوم إلى وقفة باترة لكل خلاف وشقاق.

ويا للعجب كيف يتحول الشعر عند بعض الإخوة من سلاح في سبيل دعوة الحق والفخر إلى سلاح في يد العصابة الحمقاء.

وننتهي إلى تمثيل قول قيس بن عاصم المتقري الداعي شعراً إلى التمسك بالوحدة التي هي رمز القوة، وذلك حين قال:

كونوا جميعا يا بني إذا اعتري
خطب، ولا تفرقوا أفرادا
تأبي الرماح إذا اجتمعن تكسرا
وإذا افترقنا تكسرت أحادا

المصادر والمراجع

- 1- مقالات أربع: عبد الوهاب عزاب يحيي الخشاب. مطبعة التأليف والترجمة والنشر 1368 هـ ص 35.
- 2- العمدة بن رشيق القيرواني ج 1 - ص 08.
- 3- النجوم الزاهرة : الإمام عبد الله بن المبارك ج 2 - ص 103.
- 4- من وحي القلب : محمد سعيد رمضان البوطي ص 113 .
- 5- الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير . نور سليمان - دار العلم للملايين - بيروت 1981 ص 387.
- 6- المرجع نفسه ص 388.
- 7- المرجع نفسه ص 389.